Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

4 ـ صنع التاريخ بالتأويل:

إن هذا المشروع القرائي سعى إلى توحيد الأمة كما أن المشروع التأويلي تغيّا الغاية نفسها؛ ومع هذه النزعة التوحيدية المهيمنة فإن بعض المؤولين المستنيرين كانوا يرون أن ما قدموه من مبادىء وقوانين للتأويل ليست قطعية ملزمة، وإنما هي ظنية تأطيرية تمنع من الزيغ والضلال؛ ولذلك، فإنه لا مانع من الإضافة إليها ومن الاختلاف في عددها وفي وجاهتها. وقد صاغوا لهذا السبيل أقوالاً مأثورة: «**ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الاتفاق فيها**»، و «**ثبت أن الظنيات عريقة في إمكانات الاختلاف فيها، لكن في الفروع دون الأصول**».

في ضوء هذا يمكن النظر إلى المشروع التأويلي من زاويتين؛ وكلتا الزاويتين تجعل منه معاصراً لنفسه ومعاصراً لنا؛ فأما معاصرته لِنفسه فهذا لا يحتاج منا إلى إسالة المداد فيه مرة أخرى، وأما معاصرته لنا فيمكن أن ينظر إليها من ناحيتين: ناحية إيديولوجية سعت إلى التوفيق بين فئات المجتمع دون إلْغاء أية فئة؛ وهذا ما يجده القارىء عند ابن رشد وابن طفيل والشاطبي متجلياً في طروحاتهم الفلسفية والتأويلية كالاعتراف بتعدد الطرق المؤدية إلى المعرفة وعدم التقابل بين المذاهب والاتجاهات والتركيز على الحد الأوسط والطرف المحايد، وهذا ما يعثر عليه لدى البلاغيين في التوفيق بين أصول الثقافة «الإنسانية الكونية»، والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة، وهذا ما يصادفه لدى العزفي في التوفيق بين الفقه والحديث والتصوف، وعند ابن الخطيب في الجمع بين الهرمسية والأرسطية والعقلانية الإسلامية.

وأما الناحية الثانية فهي علمية تتجلى فيما وظفه من مبادىء منطقية ورياضية وبلاغية ولسانية، وهي مبادىء ما زالت تحتل الساحة إلى الآن رغم الثورات العلمية المتعاقبة. وقد قدمنا في فصول هذا الكتاب أدلة على ذلك.

غير أن ما قدمناه قد يطعن فيه بالتفرقة الحادة بين العامة والخاصة لدى مثقفي المغارب؛ بيد أن هذه التفرقة هي أساس التوحيد لأنها تراعي أقدار عقول الناس: العامة تُشْبَعُ حاجاتهم بصياغة تمثيلات تقرب المعنويات إلى عقولهم، وبظواهر الآيات القرآنية، والحديث والآثار، وأما الخاصة والراسخون في العلم فلهم أن يتفلسفوا ويتمنطقوا ويتكلموا.